جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة – الجزائر
ISSN: 1112-4377, EISSN: 2588-2384
المجلد: 30. العدد: 04. السنة: 2026.
مجلة المعيار
EL MIEYAR

المقاومة والمقاومة المضادة: قراءة سوسيو–ثقافية في رواية الشوك والقرنفل

Resistance and Counter-Resistance: A Socio-Cultural Reading of The Thorns and the Cloves

د.لبيض إشراق[1]
i.lebied@univ-eltarf.dz
https://orcid.org/0009-0004-9203-4837

تاريخ الاستلام: 2026/03/31 تاريخ النشر: 2026/09/15
Received: 31/03/2026 published: 15/09/2026

ملخص :

يسعى بحثنا إلى استخراج تجليات المقاومة والمقاومة المضادة من رواية "الشوك والقرنفل" للكاتب الشهيد الفلسطيني يحيى السنوار، ويهدف إلى إبراز استراتيجيات وطرق اشتغال المقاومة المضادة، ومعرفة مدى إسهامها في تقويض الحركة الثورية وتفكيك الخطاب المقاوم وإضعافه من خلال وسائلها المتعددة ومن أبرزها: الخيانة والتواطؤ مع المستعمر وكذا التحولات الأيديولوجية والتعاون الصهيوني–الفلسطيني، وتوطيد العلاقات الاجتماعية بين الجلاد والضحية، وعليه قمنا بتحليل مختلف السياقات السوسيو–ثقافية التي أفرزت هذه التحولات في بنية المجتمع الفلسطيني، ورصدنا مختلف رهانات المقاومة في ظل المقاومة المضادة.

كلمات مفتاحية: المقاومة المضادة، العمالة، الهوية، فلسطين، المقاومة الشعبية، الاحتلال.

Abstract:

This article examines the manifestations of resistance and counter-resistance in "The Thorn and the Carnation" by the martyred Palestinian writer Yahya Sinwar. It seeks, more specifically, to bring into focus the strategies and operational logics of counter-resistance and to assess the extent to which they contribute to weakening the revolutionary movement, fragmenting the discourse of resistance, and eroding its political and symbolic force. In the novel, these counter-resistive formations take multiple forms, most notably betrayal, collusion with the colonizer, ideological reorientation, Palestinian-Zionist collaboration, and the normalization of social relations between victim and oppressor. The study therefore analyzes the different Socio-cultural contexts that produced such transformations within the structure of Palestinian society, while also tracing the stakes, pressures, and reconfigurations of resistance under the conditions imposed by counter-resistance.

Key word: Counter-resistance, enemy collaboration, betrayal, Palestine, occupation

(1) مخبر التراث والدراسات اللسانية، جامعة الشاذلي بن جديد، (الطارف).

مقدمة:

شكلت القضية الفلسطينية تيمة أساسية في المدونة السّردية المعاصرة، واحتلت موقعا جوهريا فيها، بفضل ما تتيحه من إمكانات دلالية متعلقة بالصراع بين قوى التحرر ومنظومات الهيمنة وما تختزنه من توترات فكرية وأخلاقية ودينية، وفي هذا الصدد انخرط القلم الفلسطيني في تمثيل وتفكيك واقع الاحتلال عبر إبراز مظاهر المقاومة في مستوياتها المتعدّدة، غير أن بعض الأقلام الرّوائية تناولت هذا الطرح التقليدي وتجاوزته، لتسلط الضوء على الأبعاد العميقة لثنائية المقاومة والمقاومة المضادة، بوصفها صراعا ممتدا يشمل الخيانة، والتطبيع، والانفصال عن الانتماء الوطني، والتنازلات الأيديولوجية، والابتعاد عن العادات والتقاليد.

وانطلاقا مما تقدم تطرح دراستنا إشكالية رئيسة تتحدد في: كيف تتجلى ثنائية المقاومة والمقاومة المضادة في رواية "الشوك والقرنفل" في ظل الاغتراب الوطني والديني والاجتماعي، وما الذي تكشف عنه من أهداف فكرية وسردية؟، وترى الدراسة أنّ الرّواية لا تعيد إنتاج خطاب مقاوم تقليدي، بل تمارس عليه نوعا من المساءلة والتفكيك عبر إبراز تصدعاته الداخلية الناتجة عن الخيانات والتغيرات التي طالت بنية المجتمع الفلسطيني، والخذلان الإقليمي للقضية، ومن ثم، تهدف هذه الورقة البحثية إلى الكشف عن تجليات المقاومة المضادة وإبراز طرق تعامل المقاومة معها، من خلال تتبع آليات حضورها داخل المتن الرّوائي بدراسة مسارات الشخصيات، وبنيات الخطاب، واستجلاء السياقات المؤثرة، وتقديم قراءة في الأسباب، والنتائج والآفاق المستقبلية بالاعتماد على فك شفرة العلامات والوظائف السّردية في ضوء تحولات المعنى السوسيو–ثقافي.

وتكتسب هذه الدراسة مشروعيتها النقدية من كون الرواية كتبت بقلم قائد من قادة المقاومة الفلسطينية، المناضل يحيى السنوار الذي عانى في سجون الاحتلال وذاق مرارة الأسر، وحلو الجهاد والاستشهاد في سبيل الدين والوطن، والذي قاوم إلى آخر نفس من أنفاسه لتغدو عصاه التي ضرب بها الطائرة المسيرة التي اغتالته أيقونة حية وشاهدة على وفائه ونضاله، ومتحولة إلى رمز لشجاعة الفرد الفلسطيني وقوته، فجاءت روايته التي كتبت بين جدران سجن "بئر السبع" محمّلة بأحداث واقعية تجعلها وثيقة تاريخية تفضح بدقة متناهية عقودا زمنية من الكذب والزيف والإجرام.

1. الإطار المفاهيمي: في مفهوم المقاومة والمقاومة المضادة:

إنّ "مقاومة الاحتلال قديمة قدم البشر، فقد سجل التاريخ البشري العديد من حالات اعتداء شعوب على أخرى، احتلالا لأرضها وقهرا لسكانها، فما كان من هذه الشعوب إلا أن تمرست حول حقها في الدفاع عن نفسها والذود عن أرضها فكانت المقاومة هي النتيجة المنطقية لذلك، وإن تعددت صورها وأشكالها، وتنوعت طرقها وأساليبها ووسائلها وأدواتها" (كريم، 2018، صفحة 13)، وقد عبر الأدب بمختلف أجناسه عن مقاومات الشعوب، وخاصة الرواية لما تتمتع به من قدرة على نقل الواقع.

وتمثّل "التجربة الإبداعية الروائية الفلسطينية جانبا من تطور الرواية العربية الحديثة" (صالح خليل، صفحة 5)، من منطلق تعدّد موضوعاتها، فالرواية الفلسطينية صوّرت الواقع الفلسطيني ونقلت أحداثه بأدق التفاصيل، فتحدثت عن المنفى، الاعتقال، المقاومة المعاناة، والخيانة، وتعدّ رواية الشوك والقرنفل للكاتب الفلسطيني الشهيد يحيى السنوار من أبرز الأعمال الإبداعية الواقعية التي استوعبت هذه التجليات الحياتية برمتها.

تتّخذ المقاومة في رواية "الشوك والقرنفل" بعدا مغايرا للكتابات الكلاسيكية؛ إذ لم تعد مجرد فعل استجابي لممارسات المستعمر بل يتجلى من خلالها نمط مقاوم يفكك آليات المقاومة المضادة، وهو ما يمكن تسميته بـ: "مقاومة المقاومة المضادة".

ويقصد بالمقاومة المضادة في هذه الدراسة مجموع الممارسات والآليات الداخلية التي تعمل على إضعاف الفعل المقاوم أو تفكيك حاضنته الاجتماعية أو إعادة تشكيل وعي الجماعة بما يخدم استمرار منظومة الهيمنة، سواء اتخذت هذه الممارسات صورة مباشرة كالعمالة والتجسس، أم صورة غير مباشرة، كالتبعية الاقتصادية والاختراق الثقافي والتطبيع الاجتماعي.

تعد المقاومة المضادة اختراقا ناعما للنسيج السوسيو–ثقافي الوطني، وفي هذا الصدد، قامت الرواية بتجاوز المفهوم المألوف للمقاومة وقدمته في قالب جديد يتسق مع المرجعية الذاتية للكاتب الشهيد يحي السنوار، ليس من جانبها العسكري فحسب بل بوصفها ممارسة فكرية واعية تركز على تواطؤ الداخل وترصد الانهيار القيمي، حيث يكسوها تكثيف سردي لأحداث واقعية تتقدس فيها الحرية رغم عدم تكافؤ القوى المتصارعة.

تتسم المقاومة الشعبية بكونها بنية متكاملة فكريا وسلوكيا، مؤطرة بوعي وجودي (أنطولوجي) بالصراع وحقيقته المزيفة، وتُمارَس داخل فضاء مكاني مأزوم بالاضطهاد الكولونيالي المادي والمعنوي، وهي رد فعل لاسترجاع الكرامة والنيل من المستعمر الذي يريد نفي الإنسان الفلسطيني، وطمس انتمائه العقائدي، ومن هذه الزاوية تصبح المقاومة ضرورة حتمية لإفشال مخططات الهيمنة التي يستعين فيها العدو بوكلاء محليين أو أوعية ثقافية تتخفى برداء الوطنية الزائف، ولا يمكن أن تنجح المقاومة وحدها دون التفاف الحاضنة الشعبية حولها، وتعني الحاضنة الشعبية "التأييد والدعم الشعبي للثائرين أو للمسلحين أمام خصومهم، سواء كان هؤلاء الخصوم النظام القائم المحلي أو القوة الأجنبية المحتلة" (عكاري، 2020، صفحة 140)، بما في ذلك المقاومة المضادة التي تمثل الوجه المضمر لآليات السيطرة والهيمنة، وتكمن تداعياتها في اشتغالها على تقويض الحركة الثورية، من خلال بث مفاهيم الضعف ونشر الخيبة داخل وعي الجماعة، هنا لا يكون العدو ظاهرًا في صورة المحتل فحسب، بل ينتحل شكل خطاب تبريري، موقف متقاعس أو أطروحة مغلوطة تسوق لـ"الواقعية"، لذا فإنّ الحرية لا تتحقق ما لم يتجه الثوار والحاضنة الشعبية إلى تفكيك هذا النوع من التواطؤ الدنيء الهادئ الذي يغذي الاحتلال ويعيد إنتاجه من الداخل.

2. سيكولوجية العمالة وبواعث الغدر الداخلي

يفكك السرد الروائي البنية النفسية والاجتماعية لظاهرة العمالة، مستعرضا آليات الاشتغال الاستعماري في اختراق الصف الداخلي، وفي هذا السياق اعترف الجاسوس بأنّه باع حياة قائد المقاومة الشعبية أبو يوسف "مقابل مبلغ زهيد من المال، وأنه لم يكن يعرف أنهم سيقتلون..." (السنوار، 2004، صفحة 32) ، يحيل المقطع على أنّ المال يمثل أحد أخطر الدوافع المؤدية للخيانة إذ يسلب الوعي ويعمي البصيرة، ما يجعل الذات تحيد عن جادة الصواب وتعلي من شأن المصلحة الفردية على حساب المصلحة الجماعية، فالمال أعمى بصيرته وجعله يحيد عن جادة الصواب ويقدم المصلحة الفردية على المصلحة الجماعية، وهذا الفعل المخزي في نظر الفدائيين ليس مجرد عمل فردي معزول، بل هو تقويض للمنظومة القيمية والمبادئ المشتركة، حيث يبرز الروائي من خلال هذه الشخصية كيف تتحول الخيانة إلى شرخ في الوحدة الوطنية، وإلى رافعة تخدم تموقع العدو وتعزز قوته عبر تواطؤ خسيس من أبناء الوطن ضد الوطن.

ومع تنامي شبكات العملاء وتصاعد وتيرة الحصار، تولدت استجابة دفاعية مضادة، حيث كثرت عمليات التفتيش والتصفية ولأنّ سكان المخيم قد أدركوا حاجة العملاء إلى بيئة لوجستية آمنة لتسريب الأخبار وتسهيل عملية القبض على المجاهدين فقد لجأ السكان إلى ابتكار "أنشودة شعبية عارمة (بيعوا...بيعوا...بيعوا واتريح منوا والصندل أحسن منه)...ويسمع الفدائيون تلك الأصوات ويعرفون مكانها فيأخذون حذرهم" (السنوار، 2004، صفحة 67)، وتتجاوز هذه الآلية الإنذارية بعدها الفلكلوري لتصبح نموذجا يكشف الوعي المتقدم للمقاومة الشعبية؛ حيث يتحول كل فرد في غزة إلى حارس أمني، يبعث تحذيرا مشفرا لا يفهم دلالته وسياقه إلا السكان وأفراد المقاومة، هذا

التكتيك الجمعي أسهم بفاعلية في إفشال خطط العدو، وقلب قواعد الاشتباك لتقويض حلقة الوصل العضوية التي كانت تربط بين العملاء وجهاز الاحتلال.

ومن بين بواعث العمالة الأشد فتكا يبرز "الابتزاز الأخلاقي"، حيث يستغل الاستعمار الثغرات النفسية ولحظات الضعف البشري، ليتحول الابتزاز بالصور والتصفية إلى أداة ضغط سيكولوجية وقهرية، وتتجلى هذه الآلية في إسقاط الضحية في وحل الرذيلة ثم ابتزازها بفضح صورها، ومثال ذلك ما حصل مع الفتاة التي تم استدراجها وتصويرها في وضع مخل ومن ثم تهديدها، لتجد الفتاة نفسها محاصرة بين خيارين كلاهما مر: إمّا العمالة وإمّا الفضيحة.

وفي مسعى لتكريس سيكولوجية الانهيار قال أحد العملاء للبنت بأنّها إذا لم تستجب سيفضحها، ممتصا إرادتها بمنحها مهلة للتفكير كنوع من التلاعب النفسي لإقناعها بحتمية التواطؤ، بيد أنّ البنت قررت الانتحار بدلا من الاستسلام والارتهان، وهو فعل يكشف عن وعي أخلاقي صارم، حيث فضلت الموت بكرامة على الحياة بذل ومهانة، وموقفها هذا ليس مجرد نهاية يائسة وحزينة بل هو بيان سردي يرفض ثقافة الخيانة والفساد، ويكشف مصيرها عن أقصى درجات الانسداد التي ينتجها الابتزاز، حيث يصور السرد الذات وهي محاصرة بين التهديد بالفضيحة وخطر الوقوع في العمالة، لتنتهي إلى مصير مأساوي.

وتكمن خطورة هذا المطب الاستعماري في ديناميكية التوالد الإجرامي الخبيث، إذ يوظف كل من يسقط في الفخ كأداة لإيقاع أشخاص آخرين، وهو ما يثبته المتن "جميع الشباب في المخيم كانوا يعرفون الكثير من قصص النساء، وأن الفتاة قد أسقطت في العمالة وصارت تشتغل مع المخابرات لإسقاط شباب آخرين"، (السنوار، 2004، صفحة 155)، وهنا تصبح العمالة منظومة وبائية خطيرة تخرج عن سياقها النفعي الفردي (جمع المال عبر تسريب المعلومات) لتتحوّل إلى آلة قادرة على إنتاج الخلايا السرطانية وتفريخ المزيد من الخونة داخل النسيج المجتمعي.

3. تجليات المقاومة المضادة في "الشوك والقرنفل"

أدرك الكيان الصهيوني أنّ إراقة الدماء وحدها لا تكفي لفرض الهيمنة المطلقة وإخضاع الشعب بأكمله، وبالتالي لجأ إلى الحرب النفسية وتفتيت البنية المجتمعية ونشر الفتنة لزعزعة اللحمة الوطنية، وإنتاج خطاب تزييفي يصور جل المقاومة بأنها عبثية لا معنى لها والوسيلة الأنجع لتحقيق هذه الأغراض هي "المقاومة المضادة" بأدواتها المختلفة، ومن أبرزها:

1.3. النماذج البشرية للاختراق (الشخصيات الخائنة): تتجسد المقاومة المضادة في الرواية من خلال نماذج بشرية مأزومة تشخصن آليات الاختراق الخارجي، مثل:

-**الجاسوس الفلسطيني**: الذي يعيش في المخيم شأنه شأن اللاجئين الفلسطينيين والذي لم يرحم بني جلدته الذين يضحون من أجل حريته وباقي أمته، بل على النقيض تماما خان القضية وخان الشعب والأكثر من ذلك أنّه خان الواجب بتواطئه مع العدوان مما أدى إلى مقتل قائد المقاومة الشعبية المدعو "**أبو يوسف**" وذلك بسبب الوشاية بمكانه، وهي صورة تعكس الاستهانة بدماء الشهداء وبأرواح الأبرياء فهو لم يكتف بالخيانة، بل تعدى ذلك إلى المساعدة في حصار القائد وقتله بطريقة غير مباشرة، وهنا يتحول من ذات فلسطينية يفترض انخراطها في مساعي التحرر، إلى مقاوم مضاد وأداة يستعملها العدو لتحقيق مصالحه.

– **فايز**: هو صديق إبراهيم كان يدعي الصداقة والقرب وهو في الحقيقة عميل للاحتلال، تميزت شخصيته بالقدرة على النفاق والتلون، كان يلاصق إبراهيم ولا يتركه أبدا بهدف استلال المعلومات منه ولكن إبراهيم تفطن له باكرا، فقتله دون شفقة؛ لأنّه غدر بالبلاد والعباد وشكل خرقا يهدد المصلحة الوطنية.

–**الدروز الفلسطينيون**: قام العديد من الدروز الفلسطينيين بقبول التجنيد الإجباري، فأصبحت هويتهم الثقافية والوطنية متشظية وهجينة؛ فهم ينتمون لفلسطين جغرافيا ولكنّهم في الوقت ذاته يبدون ولاءهم للمؤسسات الاستعمارية فأصبحوا عائقا من عوائق التحرر، وجزءا من المقاومة المضادة "وفي عملهم يقومون بواجباتهم على خير ما يقوم به اليهود" (السنوار، 2004، صفحة 275) وهذا الولاء يضعف النضال ويكسر الأسرى ويزيد عذابهم، كونهم ساهموا في تعذيب وسجن واعتقال إخوتهم من دمهم وعرقهم وتمادوا بمحاولتهم هتك أعراض النساء، وبالتالي يتحول الدروز إلى أداة محلية للقمع.

–**البدو والشركس**: قام العديد منهم بتقديم خدمات جليلة للاحتلال، من خلال اقتفائهم لآثار المقاومين وهو ما يساهم في إجهاض الصراع بتعبير يحي السنوار.

وعليه تكون الشخصيات الخائنة قد مثّلت أهم وسائل المقاومة المضادة من خلال تغلغلها في عمق المجتمع لخدمة المصالح المعادية، إذ أفقد الفرد سيادته الذاتية ليتحول إلى كائن مستلب تتحكم فيه القوى المضادة، لذلك فإنّ الوعي بهذه الديناميات يساهم في الحفاظ على جوهر المقاومة ووحدتها ضد كل محاولات الاختراق.

2.3.الصمت العربي عجز أم ترك متعمد؟:

لم يكتف الكيان الصهيوني بفرد أجنحته على الأراضي الفلسطينية من خلال السيطرة السياسية والعسكرية فحسب، بل اعتمد وسائل دموية عنيفة تسعى إلى المحو الفيزيائي والأنطولوجي للعرق الفلسطيني، وذلك من خلال استراتيجية الإبادة الجماعية الكلية التي لا تفرق بين المدنيين والمقاومين، ولا بين النساء والرجال، فهو لا يترك إنسانا ولا شجرا ولا حجرا، يقوم بتسوية كل شيء بالأرض، عبر رشقات صاروخية في مفارقة سريالية صارخة تستهدف أجسادا غضة بريئة لا تجيد الكلام بعد، وتدمير البنية التحتية وممارسة الاعتقال العشوائي الذي لا مبرر قانونيا أو أخلاقيا له؛ مما حوّل غزة والعديد من المدن الفلسطينية إلى مسرح للجريمة يتنكر فيها الذئب بثوب الضحية، وينهش أرواحا تدافع عن أرضها وسط وديان من الدماء، وآلاف من الرؤوس التي فصلت عن أجسادها، والعديد من المستشفيات التي يتحوّل فيها الموت إلى تجربة مضاعفة الوجع: مرة بالمرض ومرة بالقصف والمساجد التي ما إن يرفع فيها المؤذن صوت الأذان حتى تسكته قنبلة من حيث يحتسب، فهو يدري أن حرب بلاده حرب دينية وليست كما يعتقد الكثيرون بأنّها حرب سياسية جغرافية، إذ تفكك الرواية مرجعيات الصراع لتكشف أنّه محكوم بمركزية عقائدية دينية، فـــ "المسألة ليست فقط مسألة أرض وشعب طرد من هذه الأرض وإنما هي معركة عقيدة ودين" (السنوار، 2004، صفحة 132)، بالإضافة إلى هذه الممارسات التعذيبية ينتهج الاحتلال سياسة التهجير حيث يرغم الفلسطينيين على النزوح والعيش في الخيام التي تدمرها الرياح ويملؤها البرد والرعب.

ومن المعلوم أنّ فلسطين بلاد عربية، ومن المفارقات التي تستدعي التأمل هو ما شهدته بعض الدول العربية من عملية تطبيع مع الاحتلال الإسرائيلي دون الالتفات إلى ما يرتكبه من مجازر في إخوانهم الفلسطينيين، وقد "تجسدت فكرة التطبيع بشكل علني ورسمي في عهد ترامب بعد محاولات عديدة من قبل الكيان الصهيوني منذ تأسيسه، ومصطلح صفقة القرن هو نتاج المخططات القديمة والجديدة لتغيير خريطة المنطقة وإنشاء الكيان في قلب الأمة بشكل رسمي...مبني على أساس تبادل المصلحة والعلاقات الثنائية العربية والهدف منه هو إدماج

الكيان الصهيوني مع المحيط العربي كجزء من ثقافة وواقع حال في المنطقة لتنفيذ مخطط مفهوم الشرق الأوسط الجديد أو الكبير" (رافعي، 2022، صفحة 102)، وهو ما تطرق إليه الكاتب في نصه، وبيّن مظاهره وتداعياته.

تطرح الرواية موقف الدول العربية من كل هذه المسالخ البشرية والممارسات القمعية؛ وتتوسل ذلك عبر الذاكرة السردية لشخصية "الجد" الذي "في البداية كان أمله في العودة إلى الدار والبيادر في الفلوجة قريبا وأنه لا أخطار تحدق بنا، فالخطر سيكون على اليهود الذين ستدوسهم جيوش العرب، ولكن بعد أن اتضحت له معادلة المعركة الجديدة بأنّها لغير صالحنا كعرب، فقد رفض النزول إذ لم يعد هناك طعم للحياة، وقد تساءل إلى متى سنظل نختبئ ونهرب من قدرنا" (السنوار، 2004، صفحة 6)، ليكون الجد بهذا الموقف قد اختزل المعاناة الفلسطينية في عمقها التاريخي؛ حيث يضمر رفضه للنزول رفضا للنزوح ولسياسة التهجير القسري، وتمسكا بالأرض، كما وصف شعور الفلسطينيين باليأس وخيبة أملهم جراء تخلي الجيوش العربية عنهم، وبالتالي يتحول الخذلان من حدث سياسي عابر إلى شرخ سيكولوجي موغل في الوجدان الفلسطيني مما يشكل طعنة موجعة للإحساس الفلسطيني، ويتحول معه الصمت إلى خيانة وأداة من أدوات المقاومة المضادة التي تباشر وظيفتها التدميرية على المستوى النفسي.

يطمر الصمت العربي في ظل ما تكابده فلسطين من عذاب أبعادا تزيد الوضع خطورة؛ حيث أنّ موقف الدول العربية السياسي يتسم بالضبابية لكونه يخلو من التصرفات الحاسمة ويكتفي ببعض التنديدات التي لا تهز شعرة من رأس الكيان الغاصب لا تشفي ألما ولا تغني من جوع، فصمتهم وصيامهم عن الدعم المادي وتحريك جهازهم العسكري رغم قدرتهم على ذلك ما هو إلا تخلي صريح عن القضية الفلسطينية وكأنهم نسوا أو بالأحرى تناسوا أنهم معنيون بها أيضا؛ لأن "قضية فلسطين قضية الأمة العربية كلها والخطر الصهيوني خطر على العرب أجمعين" (زعيتر، 1955، صفحة 5) وهذا السكون يمثل نسقا ارتداديا وفشلا ذريعا يعزز الشعور بالخيانة، فالفلسطينيون بلا سند، يشعرون بمرارة الخذلان ويتجرعونه بكل ألم وإحباط فهم مهددون بانكسار بنيتهم الداخلية جراء تصدع الجدار القومي، أي أنّهم مهزوزون وأحد أجنحتهم مكسور.

إنّ هذا التموضع العربي الذي يشبه وعي الصنم العاجز عن تحريك ساكن، هو موقف مضاد ومناهض لما يمليه المنطق، ولما تتطلبه القومية والحمية العربية، وما يقر به الدين الإسلامي من ضرورة الجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى؛ فهذا السكون يصب الملح على الجراح ويفتح باب التساؤلات: هل هذا الخذلان يحمل بين طياته عجزا ناجما عن ضعف مادي حقيقي، أم أنّه ناجم عن ضعف إرادة وخوف، أم أنّه تخلي صريح ومتعمد لأجل تحقيق مصالح مشتركة بين الصهاينة والدول العربية؟ ولعل الفرضية الأقرب هي هذه الأخيرة، ويمكن اعتبار ما تشهده سنة 2026م من انفتاح للعلاقات بين بعض الدول العربية المطبعة التي أبدت موقفها الداعم للكيان الصهيوني المناهض للمقاومة الفلسطينية بفصائلها المختلفة، وصمتت في ظل الإبادة الجماعية في حق الفلسطينيين التي بدأت سنة 2023م واستمرت إلى غاية اللحظة، خير دليل على كونه الطرح الأقرب والإجابة الأوفى، خاصة أن بعض الدول العربية لم تكتف بالحياد السلبي بل انحازت للمحتل فتحت له نطاقها، وأمدته بدعمها في حين ضيقت الخناق على الفلسطينيين.

يجب علينا ألا ننسى "أن فلسطين بالدرجة الأولى جزء من التشكيل الحضاري والقومي العربي" (المسيري، 2001، صفحة 9) ولهذا فإنّ هذه الاستكانة تضرب في العمق، لأنها لا تمزق الجسد بل تمزق القلب فتسلبه الإحساس بالدعم والأمان، وتشعره بأنّه متروك لوحده يتخبط في نيران الاستعمار، فالصمت يشبه النزيف البطيء الذي يفرغ الدم من الجسد تدريجيا وينهكه.

نستنتج مما سبق أنّ الاستكانة العربية تتجاوز كونها مجرد موقف صامت عن الكلام صائم عن الفعل بل هي ممارسة مبطنة تترتب عليها آثار خطيرة مؤذية للقضية الفلسطينية ممزقة لنفسية الفلسطينيين، وضاربة بالكرامة عرض الحائط؛ فالتخلي عن فلسطين ما هو إلا تخلي عن

شرف الأمة العربية وكبريائها، وهو ما يتطلب مواقف معاكسة أكثر التزاما بالمبادئ والقيم، والإدراك التام بأنّ الحياد في هكذا مواقف لا يمكن أن يكون إلا تركا متعمدا، وتجدر بنا الإشارة إلى أنّ موقف الشعوب العربية والإسلامية يتميز بالانفصال عن خيارات الأنظمة؛ فهو موقف داعم معنويا لفلسطين، رافض للعدوان، فحبها مغروس في الوعي الجمعي.

4. ثنائية المقاوم والمقاوم المضاد: تباين القيم والأدوار وتفاعل المصائر

توجد في الرواية مفارقة جلية بين الذات المقاومة والذات المضادة للمقاومة؛ إذ يمثل الخونة النقيض التام لمرتكزات الهوية الوطنية والوعي التحرري، حيث يمارسون جهدا حثيثا لتكريس الحصار، وتسويغ العمليات العسكرية الاستعمارية، وتضييق الخناق على الشعب الفلسطيني بدلا من الانخراط في فك قيود التبعية.

وأمام هذا الاختراق المزدوج، يتضاعف العبء النضالي لدى الفدائيين، فبالإضافة إلى اشتباكهم المباشر مع سالبي الوطن (المحتل الخارجي)، يجدون أنفسهم في مواجهة حتمية مع بائعي الوطن (العميل الداخلي) وهو ما يحيل على خطورة المقاومة المضادة التي تمد الاحتلال بروافد البقاء، من هنا تتجه المقاومة واعية إلى اقتلاع هذه الخلايا السرطانية من جذورها صونا لوحدة الصف، وحماية للحمة الثورية من الانكسار الفادح الناجم عن تسريب المعلومات بالغة الحساسية التي تمكّن المحتل من تصفية الكوادر الفدائية واغتيالها.

يتضمن المتن السردي شبكة من الذوات المناضلة مثل: "أبو يوسف، إبراهيم، أبو شرار، أبو علي، محمد، عبد الحفيظ، عبد الفتاح، يحي، أبو رشدي، عماد" وغيرهم من الملثمين الذين أخفيت أسماؤهم وتسامت أفعالهم الشجاعة، إنّ تغييب الاسم الفردي وملامح الوجه يعكس تذويب "الأنا" الفردية لصالح "الكل" الجمعي، وهو أسلوب من أساليب الحفاظ على الخصوصية وحماية حياة المقاومين، وتأتي ممارساتهم النضالية كرد فعل صريح ومباشر على التعاضد القائم بين المقاوم المضاد والعدو، وإرساء لإرادة فولاذية لا تنثني أمام كوابح الهيمنة.

يكمن التباين الجوهري بين المقاوم الثائر والمقاوم المضاد العميل في ثنائية (القيمة والاستلاب)؛ فالأول يمتلك شجاعة وقوة تجعله يقدم جسده ودمه فداء للحرية الجماعية دون التطلع لامتيازات نفعية، مستهدفا استعادة الأمن والاستقرار، أما الثاني فيعيش حالة تشيؤ وسقوط قيمي، تجعله كائنا مهزوزا سيكولوجيا، يتحرك في عتمة الهامش ويحمل عار العمالة، مضحيا بمصلحة وطنه مقابل فتات مادي أو امتيازات سياسية ووعود وهمية.

تتجسد هذه الثنائية المتناقضة بأعلى مستوياتها النقدية في "مفارقة الموت"، حيث ينقسم الموت في المتن إلى استراتيجيتين متقابلتين في بناء المعنى:

-**الموت الملحمي**: وهو الموت في ساحة الاشتباك، حيث يقدم محاطا بهالة من الإجلال والوقار، ويعاد إنتاجه رمزيا لا بصفه غيابا أو فناء، بل بصفته ذروة البطولة والوفاء، لا يرى المقاوم في الموت نهاية الحياة، بل يتعامل مع الجسد كأداة للوصول إلى الجنة وتحقيق النصر، مثلما فعل رائد حيث "وضع على وسطه الحزام الناسف ... تقدم نحو الحافلة رقم (18) استقلها...فجر نفسه فيها فقتل جميع ركابها دون استثناء" (السنوار، 2004، صفحة 306)، فتحقق حلمه بالشهادة ، وهو يعلم أنّ الاستشهاد في ساحة القتال ليس خسارة، بل هو امتداد طبيعي للصراع التاريخي ضد الظلم، حيث يتحول الشهداء إلى لهيب يشعل جذوة المقاومة

-**الموت المخزي**: وهو مصير الخونة والعملاء، إذ يتجلى في مشاهد مكللة بالخزي والنبذ الاجتماعي، حيث "تشكلت مجموعات من كافة الفصائل بدأت تطارد المشهورين من هؤلاء العملاء وتعتقلهم أو تخطفهم، تأخذهم إلى البيارات أو إلى أماكن مهجورة نائية تخضعهم للتحقيق طيلة أيام أحيانا كانت تستخدم العنف وأحيانا حتى العنف المفرط، ثم تقوم بعض المجموعات بقتل هؤلاء العملاء وإلقاء جثثهم على المزابل أو

الأماكن العامة" (السنوار، 2004، صفحة 218)، يصف هذا المقطع مشهد قتل العملاء يقدمه في صورة مليئة بالاحتقار، ويمكن القول إنّ نقل جثة العميل من الفضاء الاجتماعي إلى مكب النفايات يحمل دلالة ثقافية عميقة، تحيل على نجاستهم جراء أعمالهم المتسخة وتطهير المكان، إذ يعاد تصنيف الجسد وفقا للقيمة التي تمنحها الجماعة للفعل المرتكب، فينتقل العميل رمزيا من دائرة الانتماء إلى فضاء الإقصاء.

بين هذين المشهدين المتناقضين يتحدد مصير المعركة الوجودية ويحصر بين خيارين لا ثالث لهما: فإما أن يظل الأمل متقدا متوهجا بروح الإرادة، وإما أن يتحول إلى يأس واستكانة لتوسيع شروخ الهزيمة والاستسلام.

تؤسس الشوك والقرنفل في ضوء ما تقدم لفكرة "المقاومة الشاملة المتكاملة"، فالانعتاق الكلي يقتضي تضافر الكفاح المسلح الذي يرد على النار بالنار في جبهات القتال، مع الكفاح الفكري والوعي الأمني، كما يتطلب الالتزام بما أسماه "أنتوني غيدنز" (Anthony Giddens) بـ"الإجماع الأخلاقي" والذي يعني في مفهومه "اشتراك الناس في القيم نفسها للمحافظة على المجتمع" (غيدنز و بيردسال، 2005، صفحة 74)، وإذا نظرنا إلى هذا المفهوم من ناحية ظالم ومظلوم، غالب ومغلوب فإنّ إيمان الجماعة بقدراتهم الدفاعية ومعرفتهم بواجباتهم الوطنية، وحقوقهم الشرعية وعدم تخليهم عنها مهما كان الثمن قادر على إفشال مخططات العدو "فمخابرات الاحتلال كثفت عملها للتغلغل في أوساط الشعب...وعملت على تجنيد العملاء الذين ينقلون لها المعلومات عن المقاومين وتحركاتهم ومن يؤوونهم" (السنوار، 2004، صفحة 38)، وهو ما يستوجب تنوير الوعي الوطني وتطعيمه بمواقف واستراتيجيات مقاومة للمقاومة المضادة ولكل طرق الاختراق، وبذلك تصبح الحرية تحصيل حاصل.

صور الكاتب استشهاد المقاوم إبراهيم في مشهد مهيب بعد قصف سيارته وتحول جسده إلى أشلاء، إنّ خروج الجماهير الغفيرة في جنازته وهي تهتف "بالروح بالدم نفديك يا فلسطين...عالقدس رايحين...شهداء بالملايين، ومن شوارع جانبية خرج الآلاف من الملثمين من كتائب الشهيد عز الدين القسام...يرفعون الرايات الخضراء، ومن كتائب شهداء الأقصى...يرفعون الرايات الصفراء، ومن كتائب سرايا القدس يرفعون الرايات السوداء" (السنوار، 2004، صفحة 335)، يحمل تقويضا لسياسة التفريق التي تنتهجها المقاومة المضادة، إنّ تلاحم هذه الألوان في فضاء الجنازة يرسخ رسالة ثقافية مشفرة ومكتملة الدلالة مفادها أنّ: الدم الفلسطيني يوحد ما تفرقه الأيديولوجيا السياسية، وأنّ جبهة المقاومة هي بنية اندماجية تلتحم فيها كل المرجعيات والرايات تحت سقف الغاية التحررية، وسياج الهوية العقائدية المشتركة.

وتخلص هذه المقارنة إلى تفكيك ثنائية الحق والباطل في أطروحة السنوار: المقاومة كحارس أمين للمقدسات والهوية الوطنية مستعدة لدفع الذات ثمنا للحرية، والمقاومة المضادة كأداة وظيفية بيد المستعمر لإضعاف قوة الاتحاد، ومضاعفة عذابات الفلسطينيين الأبرياء.

غير أنّ تيمة المقاومة أمام هذا الغدر والتنكيل تظل مسيجة بصلابة أنطولوجية عصية على الاختراق، وقوة إيمانية بعيدة عن الاهتزاز، وهو ما يختزله المتن بدقة: "ورغم كل ممارساته لسلخهم عن عروبتهم وإسلامهم وفلسطينيتهم إلا أنّهم لا زالوا أصلب مما يمكن أن يتصوره أي من الناس" (السنوار، 2004، صفحة 144)، إنّهم جدار الصد الذي يقف في وجه الخيانة وآلة القتل موقنين بأنّ الجسد سيفنى وأنّ الاستشهاد في سبيل الله خير ختام، وهو بذلك يتحول إلى رمز للثبات والتحدي والتضحية رغم المحاولات المستميتة للتصفية.

5. أثر المقاومة المضادة على معنويات الشعب الفلسطيني

أثرت الخيانة بشكل عميق في نفوس الثوار وعامة الشعب على حد سواء، ويتخذ هذا التأثير طابعا ثنائي القطب ضمن ديناميكية الصراع الثقافي والوجودي، حيث تبدى على الحشود الشعبية غضب عارم لحظة تقديم أبي حاتم للجاسوس أمام الحشد ويعكس مشهد تجمعهم

وهتافاتهم المنددة بالغدر والمطالبة بإعدام الخائن، الراديكالية الأخلاقية والوعي الجمعي الصلب الذي يتحلى به الفلسطينيون الذين يرفضون التخلي عن قيمهم وأرضهم؛ فهم يموضعون كل أداة استعمارية كعدو أنطولوجي، ويجردون كل بائع للقضية من هويته وانتمائه الثقافي لهم.

إنّ هذا التراجع والنكوص الوطني الذي اتخذه الجاسوس أشعر الفدائيين بالخذلان، فجاء قسمهم بالانتقام لدماء الشهيد أبي يوسف كميكانيزم دفاعي واستجابة حتمية لإعادة التوازن المعنوي للمقاومة، وهو ما يؤكد "بلا شك إصرار الشعب الفلسطيني على كفاحه الوطني المتواصل لتحرير وطنه ومقدساته" (القدومي، 2016، صفحة 9)، كما أنّ التصعيد الميداني الفوري وإطلاق القنابل على سيارة الجيب الإسرائيلية جاء كممارسة خطابية ومادية تؤكد استعادة السيادة الثورية، وتعلن أنّ الثمن الوحيد لبيع الوطن هو موت البائع، وبأنّ كل من يسقط ولاؤه وتسول له نفسه مساومة الحرية سوف يلقى المصير ذاته.

تشتغل العمالة والخيانة داخل الفضاء الثقافي للمقاومة كآليات مضمرة تزرع الشك وتزعزع الوحدة السوسيولوجية في صفوف الثوار، وتهز الحاضنة الشعبية عبر محاولة تقويض مصداقية الفعل المقاوم وتفكيك مركزيته؛ وهو ما يفسر لجوء الثوار إلى فضح الجواسيس وتصفيتهم علانية أمام الفضاء العام (المخيم)؛ إنّ علانية العقاب هنا تفعل فعلها كاستراتيجية تواصلية وتطهيرية للتدليل على مصداقية المقاومة ونزاهتها، وضمانا لثبات قدسية المبادئ ضد الاختراق المضاد، وتأكيدا على ضرورة الوحدة الداخلية التي تسعى القوى الاستعمارية لتفتيتها وتقويض شملها.

فالخيانة هي تيار نفعي براغماتي يعلي من شأن "الأنا" والهامش الشخصي على حساب "الكل" والمركز الوطني، حيث تسعى لتشويه الرموز والقيادات الثورية وتجريدها من رمزيتها النضالية، لتصبح الخيانة بذلك فعلا هداما بالدرجة الأولى يهدد القضية بأكملها: وطنا، وشعبا، وهوية، وشرفا، وفي المقابل تتجلى المقاومة الشعبية كجهاد جبار مستمر لمواجهة الاستلاب، ونستنتج من خلال هذه المقارنة أنّ الصراع المحتدم بين المقاومة والمقاومة المضادة يتجاوز الخلاف السياسي الخالص، ليتشكل بوصفه حربا أخلاقية ثقافية، وقيمية ضد الفساد والاستعمار، وإثباتا على أنّ الهيمنة الكولونيالية لن تكسر شوكة الإرادة الفلسطينية العميقة.

6. تداعيات المقاومة المضادة: معيقات التحرر ووسائل التصدي

1.6. معيقات التحرر:

يتعدى الفعل الاستعماري حدود المواجهة العسكرية المباشرة ليتغلغل في البنى الاجتماعية والأنثروبولوجية للمجتمع الواقع تحت الاحتلال؛ حيث يعمد إلى هندسة ديمغرافية واجتماعية خبيثة تتوسل "التطبيع الاجتماعي" كأداة لاختراق التحصينات الثقافية، وفي هذا السياق تبرز محاولات الاحتلال الصهيوني لتشجيع وتسهيل تزاوج اليهوديات من فلسطينيين لا بوصفها حدثا اجتماعيا عابرا أو رابطة عاطفية فردية، بل بوصفها استراتيجية ممنهجة لخلخلة النسيج المجتمعي الفلسطيني وتشويه نقائه الهوياتي، إنّ هذا الامتزاج لا يهدف إلى التعايش، بل يسعى إلى إحداث قطيعة إبستمولوجية داخل الوعي الجمعي، وتغذية البنية الاجتماعية للمستعمر على حساب تفكيك البنية الاجتماعية الفلسطينية وصهرها.

تشتغل شخصية "حسن" بوصفها النموذج السردي الأبرز لهذا الاستلاب والتطبيع الاجتماعي المنهج؛ إذ يغادر مخيمه مدفوعا بوطأة الفقر وشغف العيش متجها نحو العمل في الأراضي المحتلة معلنا خروجه من رحم المعاناة الجماعية بقوله: "طلعت من المخيم وشفت الدنيا وعشت وأخذت راحتي بدل بؤس المخيم" (السنوار، 2004، صفحة 95)، وقد برز كعلامة دالة على التشظي والتفكك الهوياتي والانهيار الأخلاقي؛ إذ سرعان ما يسقط في فخ التقليد الأعمى للمستعمر الإسرائيلي في الملبس والمأكل، وهي محاكاة تفقد الذات خصوصيتها، ويتعمق

هذا الانفصال الوجداني والديني بانغماسه في سلوكيات منافية للمنظومة الدينية الإسلامية كشرب الخمر وارتياد أوكار الفواحش، مما يعكس تشوها كاملا في نسقه القيمي.

يتجلى المظهر الأكثر خطورة لهذا الانسلاخ الهوياتي في الفقد والتعثر اللغوي، حيث ثقل لسانه في نطق لغته الأم (العربية) كنتيجة لاعتياده التحدث باللغة العبرية، إنّ هذا الفقد اللغوي ليس مجرد عائق تواصلي، بل هو تقويض للمرتكز الرمزي الأول للهوية لأنّ اللغة "تتعدى حدود التواصل والتعليم إلى كونها رمزا للهوية"، (أمزيان، 2024، صفحة 532) وبفقدانها ينخلع "حسن" عن تراثه وتاريخه، ويسقط في تيه التشتت والضياع، واللغة هنا ليست مجرد وسيلة اتصال، وإنما تتحول إلى مؤشر سردي على التحول الهوياتي.

ازدادت التبعية الفكرية لدى هذه الشخصية السردية من خلال زواجه بيهودية، وذلك من خلال تبني أنماط عيش دخيلة أدت إلى تبديل معاييره المعرفية؛ فصار ينظر إلى قيم المستعمر بوصفها تجسيدا للتحضر الحداثي، بينما يرى الموروث القيمي والنضالي للمخيم شكلا من أشكال التخلف والجهل.

وأمام هذا الانفصال الجذري عن الهوية، والارتهان للمستعمر يشتغل ميكانيزم الدفاع الاجتماعي والوطني؛ حيث واجهت العائلة هذا الانسلاخ بالنبذ الكلي، وصولا إلى الذروة التراجيدية المتمثلة في اغتياله على يد أخيه إبراهيم في ظروف غامضة، ولا يمكن اعتبار هذا التصرف جريمة قتل، وإنما عملية تطهير لشرف العائلة، وخطوة جريئة لحماية القضية الفلسطينية ذلك أنّه تجاوز كل الخطوط الحمراء وأصبح عميلا لدى الاحتلال الصهيوني، وبذلك تقدم الرواية وجها من أوجه المقاومة التي تتصف بالصرامة والتصدي الحازم لكل الجواسيس.

وبالتوازي مع هذا الاختراق الفكري الاجتماعي، تفعل السياسة الصهيونية استراتيجية الاحتواء الاقتصادي والدمج الوظيفي حيث "تعمل سياسة الاحتلال الإسرائيلي إلى إلحاق الاقتصاد الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة بالتبعية إلى الاقتصاد الإسرائيلي حيث قامت إسرائيل ومنذ احتلالها للأراضي الفلسطينية بتحويلها إلى طرف تابع لها، وفرضت عليها نمطا من تقسيم العمل يخدم عملية التراكم لاقتصادها" (عدنان، 2025، صفحة 137)، ومن بين ملامح هذه الاستراتيجية فتحها أبواب العمل أمام الفلسطينيين تحت غطاء إنساني مخادع يتمثل في تحسين الأوضاع المعيشية، لكن الهدف الحقيقي هو إخماد الأصوات وتسييغ التبعية وخلق آليات للتأقلم النفسي والقبول الضمني بالبنية الاحتلالية، إنّ هذا الارتباط العضوي بسوق العمل الكولونيالي يمتد ليحدث تدميرا أيديولوجيا يطال المنظومة الأخلاقية للذات المستلبة؛ وهو ما رصده يحي السنوار بدقة حين تتبع مظاهر التحلل القيمي الناجم عن هذا الانخراط، "فتجد أنّ أحدهم قد بدأ يشرب الخمر وتردد على أوكار الزانيات والملاهي" (السنوار، 2004، صفحة 63) وفي هذا السياق يفكك الروائي حقيقة تيار الواقعية البراغماتية داخل المجتمع الفلسطيني، وهي الشريحة التي وقعت في فخ الاستلاب الفكري والأمر الواقع، مبررة اندماجها الاقتصادي بأنّ "الواقع قد فرض نفسه وأنّ إسرائيل قامت ولن يهدها أو يكسرها عدم عمل مئات أو آلاف العمال فيها" (السنوار، 2004، صفحة 48)، وهم بهذه القناعة يكرسون حالة الارتهان الوجودي للعدو، إذ يتحول الفرد الفلسطيني إلى رهينة تتحكم فيها الإدارة الاستعمارية، مما يجرده القدرة على اتخاذ مواقف راديكالية ضد مستعمر "لا يفهم لغة الحوار، وثبت علميا أن لغة العنف الثوري هي اللغة المجدية في التعامل معه" (جابر، 2017، صفحة 12)، وبالتالي تخلق فجوة بين الكفاح والمعيشة، وهو ما يمنح فرصا ثمينة للاحتلال لغرس ركائزه وتأكيد تفوقه المادي وتقوية مجاله الاقتصادي وهو ما حدث فعلا.

يطرح المتن شخصية "محمود" بوصفها النموذج المقاوم البديل، وتجسيدا حيا للكرامة والاكتفاء الذاتي، إذ يشكل قراره بافتتاح طاولة صغيرة لبيع الخضار لقاء قروش (بيضاء) قليلة سلوكا سرديا يتجاوز دلالته الحرفية في الكسب المشروع (الحلال) ليتخذ أبعادا أيديولوجية ومواقف حاسمة تجعل محمود يمثل الوعي الجمعي اليقظ الذي يعيد تسييس الاقتصاد؛ فهو يرى في كل قرش يجنى من عند المستعمر لبنة جديدة في جدار

التمكين الكولونيالي، مفضلا القروش القليلة النقية على الكثيرة الملوثة بخزي الاستغلال والتبعية وبناء على ذلك فإنّ ممارسة الرفض لديه لا تقف عند معيار الحلال والحرام، بل تعبر أيضا عن رفض الوجود الصهيوني وترتبط بشرعية الموارد المالية من زاوية نظر وطنية، وهذا يدل على التكيف الذكي مع البنية الاضطهادية، والتفطن للوسائل الاستعمارية الصامتة التي تحاول تركيع الفرد الفلسطيني عبر رغيف خبزه.

لا يقتصر هذا الوفاء النضالي على الشخصيات الذكورية في الرواية، بل يمتد ليشمل المرأة الفلسطينية التي يقدمها السرد كركيزة أساسية في مواجهة الذل والخضوع، وتتجلى هذه الصورة في شخصية امرأة تبيع الخبز مقابل مبالغ زهيدة، بيد أنّها "سعيدة راضية بقدرها، وقد جلست تربي أولاد الشهيد من دم عيونها" (السنوار، 2004، صفحة 56)، إنّ الروائي يستدعي رمزية "الأمومة المناضلة" ليقدم معياراً طهرياً للالتزام والعفاف في مواجهة مستنقع الوحل والارتهان المعيشي للاحتلال، حيث يصبح الكسب البسيط القائم على الاكتفاء الذاتي أداة لحفظ كرامة الجيل القادم وحمايته من التلوث بأموال المستعمر.

يتحول مجال الاقتصاد إلى فضاء لمقاومة المقاومة المضادة، فالتصدي للعملاء ورفض العمالة والشراكة بجميع أنواعها هو تكتيك ناجم عن منظومة فكرية إيديولوجية تؤمن بأنّ العمل مع الصهاينة يؤدي إلى انطفاء المقاومة وانعدام الوعي بالصراع ويقلص دوافع الأخذ بالثأر، وقد اعتبرت المقاومة الفلسطينية العمل مع الصهاينة جريمة وحرب وجودية ومشروعا استيطانيا فحاولوا التصدي لها من خلال: تمزيق الاتفاقيات الموقعة، وبث الوعي، وتنبيه العاملين إلى الخطورة السياسية والأنثروبولوجية لهذا السلوك وانعكاساته السّلبية ولكن دون جدوى، وبالتالي يمكننا تصنيفها ضمن المقاومة المضادة لأنّها تسهم في تحقيق أهداف الاحتلال بدلاً من إسهامها في إفشال مساعيه، "ونجد أنّ أحد هؤلاء العمال ...يمتنع عن تسليم التصريح مشيرا إلى أولاده وبناته الثمانية من خلفه لا يجدون ما يسد رمقهم وما تصرفه وكالة الغوث لا يكفي شيئا وهم كثيرا ما يبقون جياعا" (السنوار، 2004، صفحة 50)، ويظهر هذا المقطع السجال والصراع الحاصل بين الطموحات الشخصية التي دفعت بعض الفلسطينيين للرضوخ وقبول المساومة والعمل مع المغتصبين جنبا إلى جنب، وبين المقاومة التي تدعو إلى عدم الانفكاك من المبادئ وتعتبر هذا التعاون خيانة، وبالتالي يجب الاستماع إلى الواجب الوطني قبل الواجب الأسري، غير أنّ هذه الحملات التوعوية اصطدمت بجدار الحاجة البيولوجية.

تبرز ظاهرة العمل في الأراضي المحتلة كوجه من أوجه المقاومة المضادة وهي تدخل فيما سماه الدارسون بالتطبيع الاقتصادي لكونها تسهم عمليا في تحقيق مطامع الاحتلال، وهو ما يكشف عن الصراع القائم بين المتطلبات الذاتية الغريزية (الجوع) وبين الجمعي الاستراتيجي (الواجب الوطني والالتزام بالمبادئ)، حيث تضع الرواية القارئ أمام تعرية نقدية لسياسة الاحتلال التي تستخدم التجويع وتستغل قلة الوعي كأداة ضغط لابتزاز الدوافع التحررية ودفع الشعب نحو المساومة، وتتعمق هذه الإدانة السوسيولوجية لظاهرة العمالة عبر كشف التراتبية الطبقية والعنصرية التي يفرضها المستعمر؛ حيث يشتغل الفلسطينيون داخل الأراضي المحتلة في "البناء أو الزراعة أو في النظافة، في أي عمل من مجالات العمل الصعبة والمهنية التي يتكبر عليها اليهود" (السنوار، 2004، صفحة 62)، يشكل هذا المشهد الروائي نقطة تحول معرفية، حيث يصبح العمل وسيلة غير مباشرة للسيطرة وتكريس الدونية، إذ يختزل العامل الفلسطيني في أدنى درجات السلم الوظيفي، ويتحول قبوله لهذه المهن الشاقة والمذلة تحت وطأة الحاجة إلى رضوخ قسري لشروط المحتل، ينتج عنه بالضرورة تجريد الذات من كرامتها الإنسانية.

وفي نهاية المطاف تتداعى الآثار الكارثية لظاهرتي العمل في الأراضي المحتلة والتزاوج باليهوديات لتتجاوز الجيل الحاضر، وتمتد خطورتها إلى صياغة الوعي الهوياتي للأجيال القادمة، إنّ هذا التداخل الأنثروبولوجي والاقتصادي يؤدي إلى خلق جيل مشوه الوعي ذي حس وطني رخو، وأكثر قابلية للاستعمار، لكونه لا يرى في المحتل عدوا وجوديا تجب مقاومته، بل شريك عمل دائم وفضاء مناسبا للعيش، وقريبا عائليا يجب

احترامه، وبذلك تضعنا الرواية أمام تحذير شديد من مخاطر التهديد الديمغرافي والهوية المختلطة المائعة التي تذوب فيها الفوارق الجوهرية بين الذات المستَعْمَرة والآخر المستعْمِر، مما يهدد بتصفية القضية الوطنية من داخل بنيتها الاجتماعية والأنثروبولوجية.

بناء على هذه التمظهرات تخرج فكرة الخيانة في "الشوك والقرنفل" عن كونها مجرد تيمة أدبية أو حيلة درامية وظفها الروائي لتأثيث متنه السردي، لتأخذ بعدا سوسيو-ثقافيا واقعيا يحيل مباشرة على الذاكرة التاريخية الفلسطينية؛ إذ يتحول النّص إلى وثيقة حية تعكس حجم الانشقاق والتجارب القاهرة التي كابدها المجتمع الفلسطيني جراء المحاولات المستمرة لتقويض الحركات المقاومة من الداخل، وبث التشتت والانقسامات التي تحول دون صياغة نضال سياسي وعسكري جماعي، وتأسيسا على هذا غدت الخيانة بمختلف زواياها وأنواعها أداة من أدوات الاحتلال الفتاكة التي يستعملها لإضعاف الفعل النضالي، وبث الشك والارتباك في وجدان الشعب وتدمير الحركات الثورية وإجهاضها في مهدها، وهو ما يتطلب تكاتف الجهود الفلسطينية لإفشال المخططات الصهيونية، وفي هذا الصدد يرى المؤرخ "تشارلز تريب" (Charles Tripp) أنّه "يمكن حشد العمال والرجال والنساء في الفضاء العام ليعملوا معا مقاومين المحتل، من خلال استنادهم إلى التاريخ والتخيلات والهويات والتمثيلات الفنية والرمزية التي تساعد في بناء وعي متغير ينضج سياسة المقاومة التي تحاول قلب مشروع السلطة التخيلي وصورتها عن نفسها" (تريب، 2016، الصفحات 421-422)، فالشعب المؤمن بهدفه لا شيء يقف في طريق تحرره.

وقد رصد الكاتب بدقة كيف عمل الاحتلال على خلق طبقة كمبرادورية (عميلة) طفيلية ومنحها نفوذا سلطويا وماديا لتقوم بإغراء النفوس الضعيفة وتشويه البنية الطبقية للمجتمع، حيث يذكر أنّ "عددا من العملاء أصبح مشهورا ومعروفا ويحمل مسدسا...وأصبح يجني الثروات ويركب السيارات الفاخرة" (السنوار، 2004، صفحة 154)، وهو ما يعيد تعريف المكانة الاجتماعية في المخيم بناء على معايير المستعمر (المسدس، الثروة، السيارة الفاخرة) لإحداث شرخ قيمي، يغدو فيه التفريط في الوطن سبيلا سهلا لتحصيل الثراء والوجاهة الاجتماعية، وأمام هذه البيئة المشحونة بالعمالة والغدر.

2.6. وسائل التصدي:

يمكن القول إنّ الكاتب يحي السنوار قد استعمل رواية "الشوك والقرنفل" كأداة نضالية وبمثابة وثيقة تاريخية كونها "أحد أهم الفنون الأدبية التي تعكس وقائع المجتمع ومجرياته" (مرات، 2024، صفحة 605)، ويتبين من تحليلنا للرواية كيف "تتأزم الهوية وتزداد إشكالاتها في الطرح المعاصر" (زرنادجي، 2022، صفحة 82)، ويتضح بأن المقاومة المضادة تمثل سلاحا ناعما وغير عسكري يستنزف الطاقة الحيوية للمقاومة الشعبية، ويجبر الضحية على الخضوع والتسليم بالأمر الواقع، لذا فإنّ جبهة مقاومة المقاومة المضادة لا يمكن أن تنجح عبر ردود أفعال عفوية، بل تستوجب بناء مخطط استراتيجي متكامل، ورؤية شاملة ملمة بجميع الأبعاد (الدينية، الاجتماعية، السياسية، والثقافية...)، وفي هذا السياق نقترح بعض الاستراتيجيات المحلية والدولية لمقاومة المقاومة المضادة واسترجاع الحقوق المسلوبة، والتقليل من معاناة الشعب الفلسطيني، ومن أبرزها ما استنتجناه من العمل الروائي وعمقناه ليصبح بمثابة حلول مقترحة:

– تحقيق الاتحاد والانسجام السياسي والوطني الفوري بين جميع فصائل ومكونات العمل الفلسطيني، وإنهاء الانقسامات الجغرافية والسياسية، وصياغة تلاحم عضوي بين المجتمع بكافة أطيافه والمؤسسات القائمة، كشرط حتمي لا غنى عنه لتعبئة الطاقات الجمعية وحماية الهوية الوطنية.

– تطوير آليات الحماية القانونية والأمنية لمتابعة بؤر الاختراق وملاحقة شبكات التخابر، وسن تشريعات وطنية صارمة تجرّم التعاون مع مؤسسات الكيان المستعمر، وفرض عقوبات مدنية وجنائية رادعة ضد كل من يتورط في تقديم تسهيلات تخدم البنية الاقتصادية أو الأمنية للاحتلال، لحفظ الأسرار الجماعية وحماية المجتمع.

– توجيه الدعم والمشاريع نحو بناء "اقتصاد صمود" يعزز الاستقلالية الاقتصادية الوطنية ويحقق الاكتفاء الذاتي للحاضنة الشعبية مما يسهم مباشرة في تجفيف منابع الحاجة المادية والحد من الاضطرار المعيشي للجوء إلى سوق العمل داخل المستعمرات أو الأراضي المحتلة.

– بث الوعي التحرري الجمعي وتفكيك الأطروحات المضللة التي تروّج لـ "التعايش الاقتصادي والاجتماعي" والتطبيع الثقافي مع بنية اضطهادية؛ نظراً لقدرة هذه الخطابات الناعمة على تخليق جيل مائع الهوية والولاء، والاستعاضة عنها بتقوية أواصر الهوية الوطنية الصلبة ومقاومة النزعات الفردانية والمطامع الشخصية.

– إنهاء كافة أشكال التطبيع والتعاون (السياسي، الاقتصادي، والأمني) من قِبل الدول العربية والإقليمية مع الكيان الصهيوني؛ كونه يستغل هذه الخطوط لتخفيف عزلته الدولية وتسهيل ممارساته العنيفة، وتفكيك عقيدة "الحياد السلبي" انطلاقاً من حقيقة جيوسياسية مفادها أن التمدد الاستعماري يستهدف استقرار المنطقة بأسرها.

– تأسيس حلف سياسي واقتصادي يجمع الدول والمنظمات الحرة الرافضة للهيمنة الغربية والصهيونية؛ لتقديم الدعم المادي والدبلوماسي، واللوجستي لنصرة الحق الفلسطيني، ومواجهة حرب الإبادة الجماعية والسرقة العلنية للأرض بكتلة دولية وازنة تكسر الأحادية القطبية.

– التحرك الشامل والمنظّم للعالم الإسلامي ككتلة عقائدية وحضارية واحدة لنصرة فلسطين، بوصفها أرض وقف مباركة ومقدسة ومدينة الأنبياء ومسرى الرسول ﷺ، حيث لا يجوز شرعاً ولا سياسياً التخلي عنها، وباعتبار أن الدفاع عنها هو دفاع عن مقدسات وكرامة الأمة جمعاء.

– الالتزام العربي والإسلامي الشامل بتقديم الإسناد المادي (مالياً، طبياً، وإعمارياً) والدعم المعنوي والسياسي المطلق لتعزيز صمود الشعب الفلسطيني في وجه آلة التدمير، وإعادة ترسيخ القضية الفلسطينية كمعيار أول لأواصر العروبة والقيم الإنسانية.

– المطالبة الدولية والمؤسساتية بتجريم الاحتلال بناءً على خرقه الفاضح لكافة المواثيق الدولية؛ إذ يركز في استهدافه الميداني على إبادة الأطفال والنساء، وتدمير البنى التحتية الحيوية كالمستشفيات، والاغتيال الممنهج للأطباء والصحفيين، وهو ما يصنف قانونياً كـ "جرائم حرب كاملة الأركان" وتطهير عرقي يستوجب الملاحقة الجنائية الدولية.

– الارتقاء بجهود المقاطعة الاقتصادية والأكاديمية والثقافية من فعل طوعي نخبوي مؤقت إلى استراتيجية بنيوية شاملة تتبناها الشعوب والمؤسسات، وتحويل المقاطعة لمنتجات الشركات الداعمة للاحتلال إلى "سلوك استهلاكي وثقافي يومي ثابت"، لتجفيف منابع التمويل والضغط على الغرب الاستعماري ليدرك كلفة انحيازه للاحتلال.

– صياغة خطاب إعلامي رقمي مرن وعابر للغات يستعمل المنصات الحديثة لكسر الحصار، وتفكيك البروبغندا (Propaganda) الصهيونية (أي الدعاية واستخدام وسائل الإعلام للتأثير في الرأي العام)، والتركيز على فضح الأساليب الوحشية والوسائل الخبيثة للاحتلال، مما يعيد توجيه الرأي العام العالمي نحو حقيقة الصراع بوصفه صراع وجود وحرية ضد استعمار استيطاني.

– تفعيل القوانين والشرائع الدولية التي تكفل للشعوب الخاضعة للاحتلال حق تقرير المصير والمقاومة بكافة الأشكال المشروعة وصياغة استراتيجية "تكامل الساحات" سياسياً وحقوقياً، بحيث يغدو أي عدوان على أي بقعة جغرافية في فلسطين مستدعياً لرد جماعي منسق يستنزف قدرات الاحتلال الميدانية.

– تجاوز الاشتراطات الصهيونية المتعلقة بإدخال المساعدات عبر فرض إرادة عربية وإسلامية جماعية لتسيير قوافل إغاثية وممرات بحرية وبرية تؤمن المستشفيات، وتحمي الأطباء، وتوصل الإمدادات الحيوية للمحاصرين، وتحويل الإغاثة من خانة الاستجداء إلى خانة فرض السيادة الإنسانية.

– ضمان الانتقال الحي للذاكرة التاريخية عبر أجيال الأمة؛ من خلال إدراج القضية الفلسطينية وجرائم الاحتلال كمواد إجبارية ثابتة في المناهج التعليمية والتربوية لجميع الدول العربية والإسلامية، لإحباط المخططات التي تراهن على عامل الوقت، ولضمان نشوء جيل يعي حقوقه التاريخية غير القابلة للمساومة.

خاتمة

تؤكد رواية "الشوك والقرنفل" على أنّ القضية الفلسطينية تتخطى كونها مجرد صراع عسكري حول قطعة أرض، لتبيّن بأنّ الصراع وجودي يحرض على المقاومة ويلزم الشعب بتبني مواقف صارمة صريحة الاتجاه والمبدأ، فإمّا وفاء وصمود، وإمّا خيانة وخضوع، فالأرض الفلسطينية أرض مقدسة هي هوية وانتماء ديني تاريخي لا يجب تدنيسها بالعمالة، وبناءً على الرؤية الفكرية التي طرحها الكاتب المناضل في نصّه، تتحول الرواية من كونها عملاً إبداعياً متخيلاً إلى "بيان نضالي" شديد اللهجة، صريح الموقف وثابت المبدأ، يرى في المقاومة خياراً حتمياً لتفكيك بنية الاحتلال وتنحية راية التبعية، ومن خلال تحليلنا لما ورد في الرواية خلصت دراستنا إلى النتائج الآتية:

– تشتغل "المقاومة المضادة" كآلية استعمارية ناعمة لتقويض عزيمة الحاضنة الشعبية وهزّ عقيدتها الكفاحية؛ حيث يسعى الاحتلال من خلال هندسة هذه الدسائس إلى إحداث شرخ نفسي، وتشتيت اللحمة المجتمعية، وتصفية القيادات الرمزية لتفريغ الفعل التحرري من موجهاته البنيوية.

– رغم سياسات التنكيل الممنهج والتصعيد الكولونيالي المستمر، تثبت الدراسة أن شوكة المقاومة تزداد تجذراً وصلابة؛ إذ يتشكل وعي جماعي وثوري يؤثر التضحية والفداء في ساحات المواجهة بشرف، على القبول بالاستكانة والعيش تحت وطأة المذلة والارتهان.

– تؤسس الرواية لوعي نضالي متكامل لا ينحصر في مجابهة الاحتلال المسلح ميدانياً فحسب، بل يمتد لرفض سائر أشكال التبعية والصمت، مؤكداً أن السبيل الوجودي الأوحد لاسترداد الحرية السليبة هو الكفاح المستمر، والتصدي الصارم لظاهرة العمالة ومحاولات التطبيع البنيوي.

– يكتسب النص وظيفة كشفية عبر تفكيك الشبكات والروابط الخفية التي يزرعها المستعمر داخل البنية السوسيو–ثقافية للوطن لبث روح الانهزامية، وهنا تتجلى المقاومة بوصفها رداً بنيوياً مزدوجاً: عسكرياً يذود عن الأرض، وثقافياً يحمي الهوية ومقدسات الذات.

– قدّم السنوار نصاً أدبياً يحمل بصمة "الواقعية النضالية"؛ إذ غدت الحروف في يده امتداداً للسلاح، والكلمات وقوداً للثورة والانتصار، فلم تكن الكتابة لديه ترفاً تعبيرياً، بل كانت ساحة مواجهة اختلط فيها الحبر بالدم، وأداة معرفية لتعزيز الهوية الوطنية وتعرية زيف المحتل وألاعيبه الملتوية.

– تتضمن الرواية دعوة استراتيجية ملحّة لضرورة التشبث بالانتماء الوطني، وحماية الموروث الثقافي، والعمق العقدي للأمة، باعتبارها خط الدفاع الأخير في وجه محاولات الطمس والتشويه المستميتة التي يمارسها مستعمر يتجرد من أدنى القيم الإنسانية.

– تُمثّل الرواية وعاءً إبداعياً تتداخل في فضائه قضايا الصراع الخارجي (مع المحتل) بالصراع الداخلي (مع الجواسيس)؛ حيث تتبدى الخيانة، والعمالة، والصمت السلبي كأشد الأدوات إيلاماً وتدميراً للنسيج القومي، كونها تحرق القلب قبل الجسد.

المصادر والمراجع

أبو أصبع صالح خليل. (بلا تاريخ). الرواية الفلسطينية والمنفى.

أكرم، زعيتر. (1955). القضية الفلسطينية. مصر: دار المعارف.

أنتوني غيدنز، و كارين بيردسال. (2005). علم الاجتماع (مع مدخلات عربية) (الإصدار 4). (فايز الصياغ، المترجمون) بيروت: المنظمة العربية للترجمة.

تشارلز تريب. (2016). السلطة والشعب: مسارات المقاومة في الشرق الأوسط. (ربيع وهبه، المحرر) بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

خديجة، مرات. (2024). الرؤية الدستورية في الكتابة العربية المعاصرة، المعاناة في "صخرة الرماد" لزينب لوت أنموذجا. Langue et culture.

رائد عدنان. (2025). العمالة الفلسطينية في إسرائيل (دراسة في ضوء المواثيق الدولية). المجلة العصرية للدراسات القانونية، 3(1)، الصفحات 135-157.

ربيع رافعي. (2022). التطبيع العربي مع إسرائيل وأثره على حقوق الشعب الفلسطيني. مجلة القانون والعلوم السياسية، 8(1)، الصفحات 95-105.

شهيرة، زرنادجي. (2022). الهوية والتأويل في رواية رائحة الحب لعايدة خلدون. et culture langue.

عبد الرحمان ابن خلدون. (1984). تاريخ ابن خلدون. بيروت: دار القلم.

عبد القادر، أمزيان. (2024). اللغة والهوية الاجتماعية. Langue et culture.

عبد الوهاب، المسيري. (2001). فلسطينية كانت ولم تزل. القاهرة: منتدى سور الأزبكية.

فاروق، القدومي. (2016). القضية الفلسطينية، أحداث ومواقف. منشورات الطليعة.
محمد محفوظ، جابر. (2017). ، الأسرى الفلسطينيون داخل السجون الصهيونية،. عمان.
منصور أحمد أبو كريم. (2018). تطور مفهوم المقاومة في الفكر السياسي . الجندي للنشر والتوزيع.
موسى محمد عكاري. (2020). الحاضنة الشعبية للمقاومة الفلسطينية في مدينة بيت المقدس 1987-2019. مجلة دراسات بيت المقدس، الصفحات 154-139.
يحي، السنوار. (2004). الشوك و القرنفل.

References:

Abū Iṣba‘ Ṣāliḥ Khalīl. (bi-lā Tārīkh). al-riwāyah al-Filasṭīnīyah wa-al-manfá.
Akram, Zu‘aytir. (1955). al-qaḍīyah al-Filasṭīnīyah. Miṣr : Dār al-Ma‘ārif.
Antūnī ghydnz, wa Kārīn byrdsāl. (2005). ‘ilm al-ijtimā‘ (ma‘a mdkhlāt ‘Arabīyah) (al-iṣdār 4). (Fāyiz alṣyāgh, al-Mutarjimūn) Bayrūt : al-Munaẓẓamah al-‘Arabīyah lil-Tarjamah.
Charles tryb. (2016). al-Sulṭah wa-al-sha‘b : Masārāt al-muqāwamah fī al-Sharq al-Awsaṭ. (Rabī‘ Wahbah, al-muḥarrir) Bayrūt : al-Shabakah al-‘Arabīyah lil-Abḥāth wa-al-Nashr.
Khadījah, marrāt. (2024). al-ru’yah al-dustūrīyah fī al-kitābah al-‘Arabīyah al-mu‘āṣirah, al-mu‘ānāh fī "ṣakhrat al-ramād" lzynb lwt anmūdhajan. Langue et culture.
Rā’id ‘Adnān. (2025). al-‘Amālah al-Filasṭīnīyah fī Isrā’īl (dirāsah fī ḍaw’ al-mawāthīq al-Dawlīyah). al-Majallah al-‘Aṣrīyah lil-Dirāsāt al-qānūnīyah, 3 (1), al-Ṣafaḥāt 135-157.
Rabī‘ Rāfi‘ī. (2022). al-taṭbī‘ al-‘Arabī ma‘a Isrā’īl wa-atharuhu ‘alá Ḥuqūq al-Sha‘b al-Filasṭīnī. Majallat al-qānūn wa-al-‘Ulūm al-siyāsīyah, 8 (1), al-Ṣafaḥāt 95-105.
Shahīrah, zrnādjy. (2022). al-huwīyah wa-al-ta’wīl fī riwāyah Rā’iḥat al-ḥubb l‘āydh Khaldūn. langue et culture.
‘Abd al-Raḥmān Ibn Khaldūn. (1984). Tārīkh Ibn Khaldūn. Bayrūt : Dār al-Qalam.
‘Abd al-Qādir, Amzayān. (2024). al-lughah wa-al-huwīyah al-ijtimā‘īyah. Langue et culture.
‘Abd al-Wahhāb, al-Misīrī. (2001). Filasṭīnīyah kānat wa-lam tazal. al-Qāhirah : Muntadá suwar al-Azbakīyah.
Fārūq, al-Qaddūmī. (2016). al-qaḍīyah al-Filasṭīnīyah, aḥdāth wa-mawāqif. Manshūrāt al-Ṭalī‘ah.
Muḥammad Maḥfūẓ, Jābir. (2017)., al-Asrá al-Filasṭīnīyūn dākhil al-sujūn al-Ṣihyūnīyah,. ‘Ammān.
Manṣūr Aḥmad Abū Karīm. (2018). Taṭawwur Mafhūm al-muqāwamah fī al-Fikr al-siyāsī. al-Jundī lil-Nashr wa-al-Tawzī‘.
Mūsá Muḥammad ‘Akārī. (2020). alḥāḍnh al-sha‘bīyah lil-muqāwamah al-Filasṭīnīyah fī Madīnat Bayt al-Muqaddas 2019-1987. Majallat Dirāsāt Bayt al-Muqaddas, al-Ṣafaḥāt 154-139.
Yaḥyá, al-Sanwār. (2004). al-Shūk wa al-qaranful.